محاضرة رقم 12

الأيديولوجيا والفن:

يفسر إرنولد هاوزر وضوح الإديولوجيا في توجيه الفن وتشكله فهو يرى بأن الاتجاهات الفكرية تقف مع الفن مطولا في تفسيره الاجتماعي والنفسي حيث أصبحت مسألة الفن، مع الفكر الماركسي سوسيولوجية بشكل واضح، وغدت هدفا مركزيا في سبيل تطبيق النظريات المادية، على ان المفكرين المنتسبين لفكر كارل ماركس لم يجدوا سوسيولوجيا الفن في هذا الفكر بالذات، باستثناء بعض الفقرات التي تضمنها كتاب ماركس (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي) والتي تتناول المسائل الجمالية من خلال ملاحظة "السحر الأبدي" الذي مازال الفن الإغريقي يتمتع به، وهي ملاحظات تنطوي على حقيقة مخالفة في منظور لما هو متوقع، وتشير إلى غياب العلاقة بين بعض العصور التي ازدهر فيها الفن والتطور العام للمجتمع»(1).

ومواصلة منا للاستتباع التاريخي لعلاقة الفن بالمجتمع عبر الحضارات نجد في بلاد ما بين النهرين فإن المشكلة الحقيقية للفن تنحصر في أنّه، على الرغم من أن الاقتصاد فيها كان مبنيا أساسا على التجارة والصناعة، والمالية والائتمان، وله طابع يشبه الفن المصري، ففي الفن البابلي كان الطابع الحضاري يغلب على اقتصاده، ومنه نجد أن هذا الارتباط تفنيد لتلك النظرية السوسيولوجية التي هي عادة صحيحة في غير ذلك من الميادين، والقائلة بأن الأسلوب الهندسي الدقيق يرتبط بالبيئة والزراعة المتمسكة بالتقاليد، على حين أن الطريقة المطابقة للطبيعة ترتبط باقتصاد حضري أكثر دينامية، ومن الجائز أن أنواع الحكم المطلق الأشد صرامة، والروح الدينية الأشد تزمتا في بابل، قد عاقت التأثير التحرري لحياة المدينة، هذا إذا

(1) ناتالي أينيك: سوسيولوجيا الفن ، تر/حسين جواد قبيسي ،مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ط1 2011 ص 42

لم يكن اقتصار الفن على البلاط والمعبد هنا، وعدم وجود أي جانب آخر يمكن أن يكون له أي تأثير في ممارسة الفن فيما عدا الحاكم والكهنة، قد خنق جميع الاتجاهات ذات النزعة الفردية في مهدها، بل إن فن الفلاحين وأنواع الفنون الثانوية الأكثر شعبية كان لها في بلاد ما بين النهرين دور أقل مما كان لها في البلاد المتمدينة الأخرى في الشرق القديم، كما أنّ النشاط الفني كان أبعد عن الطابع الشخصي مما كان في مصر مثلا، فنحن لا نكاد نعرف أي اسم من أسماء الفنانين في بابل، كما أنّ تاريخ الفن البابلي ينقسم تبعا لعهود الملوك فحسب، ولم يكن هناك تمييز، لا في المصطلح ولا في الممارسة الفعلية، بين الفن والصنعة، بل إن قانون حمورابي يذكر إسمي المعماري والمثالي إلى جانب الحداد وصانع الأحذية.

وإذا انتقلنا إلى تفكيك علاقة الفن والمجتمع ضمن السياق الاتجاهات الفنية ،وبالنظر إلى النزعة الكلاسيكية مثلا، والتي كانت في نصف القرن الثامن عشر، نجد انها ليست حركة متجانسة، وإنما هي تطور مر بعدة مراحل يمكن تمييزها بوضوح، وإن كان قد سار بغير انقطاع، أولى هذه المراحل التي دامت من عام 1850 إلى عام 1870 تقريبا والتي تسمى عادة (كلاسيكية الركوكو) نظرا إلى الطابع المختلط لأسلوبها ،تمثل ما يمكن أن يعد من الوجهة التاريخية أهم الاتجاهات التي جمع بينها عصر لويس السادس عشر، وإن كانت مجرد تيار تحتي في الحياة الفنية لتلك الفترة، ويعد فن العمارة في هذه الفترة أوضح تعبير عن عدم تجانس الاتجاهات الأسلوبية المتنافسة، ففي هذه العمارة نجد التكوينات الداخلية المنتمية إلى أسلوب الركوكو تتحد بالوجهات الخارجية المنتمية إلى الأسلوب الكلاسيكي.

يكمن تأثير المجتمع على الفن ويتمظهر في العديد من المنجزات الفنية، فبوسع المجتمع أن ينجز أشياء للفن كثيرة، لأن بوسعه أن يزيد مساحة الحرية، وحتى السياسيون يمكنهم أن

يقدموا إلى الفن خدمة، يمكنهم إلغاء قوانين الرقابة ورفع القيود عن حرية الفكر والقول والسلوك، ويمكنهم حماية الأقليات، ويمكنهم حماية الأصالة من سخط الدهماء والأنصاف، ويمكنهم أن يضعوا نهاية للمذهب القائل بأن من حق الدولة أن تقمع الآراء غير الشائعة لمصلحة النظام الشائع، كم من حرية عارمة تُمنح لمن يتحدث إلى الغوغاء بمسلماتها المقبولة، فأقل ما يمكن للدولة أن تفعله، هو أن تحمي من لديهم قول يحتمل أن يسبب شغبًا، إن ما لا يؤدي إلى الشغب ربما لا يستحق أن يقال، وفي الوقت الراهن، لعل أفضل شيء يمكن أن يفعله أي شخص عادي من أجل تقدم الفن، هو أن يثور من أجل مزيد من الحرية.

إن تطور الفنون عبر التاريخ جعل منها في الكثير من الحضارات وجها حياتيا يجمع بين الدين والاقتصاد، و كانت وظيفة الفن في عصوره الأولى من الناحية العملية تتمثل في عمليات تزيين الأدوات والأسلحة، ثم انتقل إلى مرحلة تقديم شكل الطقوس العقائدية السحرية، ومثلما لم تكن تقاليد الحرفة في هذه المجتمعات فردية بل جماعية، فأنّنا نجد الأعمال الفنية، ومن نفس المنطلق تتخذ صفة اجتماعية، وقد تحول الفن فأصبح أداة يصطنعها المذهب الحيوي، الذي يجعل لكل شيء روحًا للتأثير على الأرواح الخيرة أو الشريرة مما يحقق مصلحة الجميع، ولا يلبث أن يتجه ذلك تدريجيًا إلى تمجيد الآلهة الجبارة، ومن ينوبون عنهم على الأرض، وعن طرائق الترانيم والمدائح، وبواسطة أنصاب الآلهة والملوك، ثم اتخذ الفن بعد ذلك قالبا دعائيا صريحًا أو مستترًا في خدمة مصالح جماعات ذات صلات وثيقة بين أفرادها.